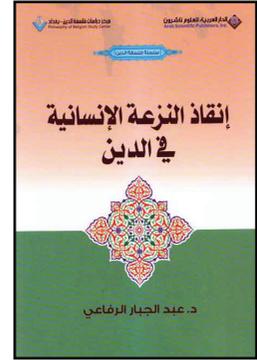


إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين

عبد الجبار الرفاعي



صدر عن الدار العربية للعلوم ناشرون في بيروت، وبالتعاون مع مركز دراسات فلسفة الدين ببغداد، كتاب إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، للمفكر العراقي الدكتور عبد الجبار الرفاعي. يحتوي الكتاب على

مجموعة من الدراسات والأوراق البحثية، بالإضافة إلى عدد من الحوارات التي أجريت مع المؤلف خلال السنوات الأخيرة، والتي تناول جوانب الفكر الديني بأبعاده التأويلية والتفسيرية، وتشعباته الميثافيزيقية والمقدسة، وآثاره السوسولوجية والثقافية، حيث يعد الكتاب سياحة فكرية تاريخية وفلسفية مهمة، يقلب فيها أوراق التراث والمقدس في الدين الإسلامي، منتزعاً مقاصده ورسائله الحقيقية الداعية إلى التسامح، والتعايش السلمي، مبيناً عيوب القراءات الأخرى التي اختصرته في مصادرة الآخر، وإقصائه، وتهميشه، وممارسة أشنع أنواع الترهيب ضده، إذ ينطلق من مقولة مشهورة، لأحد المفكرين، وهي أن «تحرير الأرض يبدأ من تحرير السماء».

حيث يفتح المؤلف كتابه بسياحة روحية وفلسفية رائعة قام بها عند مرقد الصوفي الكبير جلال الدين

الرومي الملقب بـ«مولانا»، والمدفون في قونية بتركيا، حيث يصف حلقات الذكر وحالات الرقص الروحي المفعمة بالمعنى والمشبعة بالتصوف، وصفاً روحياً دقيقاً. ثم يتطرق خلاله إلى ذكر المذهب الذي اشتقه «مولانا» في تأويل النصوص، والقائم على تغليب الروح على القانون، ويسعى لتحرير البشرية من العدوان والتعصب، ويتأسس على الحب والعشق والجمال.

ويخوض في حوار له مع إحدى الدوريات في رسم حدود المقدس والديني ووظيفتهما وعلاقتها في سيرورة المجتمعات الحديثة، متطرقاً في حوار آخر إلى ماهية المؤسسة الدينية وعلاقتها بالاجتماع البشري ووظائفها داخل المجتمع، إذ يرى أن أي تحديث داخل المجتمعات التقليدية، لا يمكن نجاحه دون التحديث داخل المؤسسة الدينية، معتبراً أن تحقيق ذلك يتم عن طريق التنمية الشاملة لكل أبعاد الحياة التربوية والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، مشدداً على ضرورة الإصلاح من داخل المؤسسة الدينية بسبب الحساسية من النماذج المستعارة.

ويفرد فصلاً عن رائدين من رواد التحديث في الفكر الديني، وهما محمد عبده ومحمد إقبال، حيث تحدث عن تأثير المقولات السياسية في شبه القارة الهندية على الإسلام السياسي في مصر، ثم تطرق إلى خصائص الإصلاح لدى الإمام عبده في مصر، فقد قدم مجموعة فتاوى جريئة أباحت إيداع الأموال في صناديق التوفير وأخذ الفائدة عليها، وحلية ذبائح أهل الكتاب، وجواز ارتداء ملابسهم، أما محمد إقبال في برنامجه الإصلاحية،

التي أبدعها عدد من الفلاسفة والمتكلمين داخل عملية استنباط الأحكام الشرعية، إذ لا يصح برأيه فصل المتراكم من القواعد الأصولية والفقهية عن السياقات التاريخية والثقافية والاجتماعية. وفي الفصل الذي أفرد له لمصادر اشتقاق الكراهية لا يخفي المؤلف مخاوفه من وجود العبارات والجمل المثيرة للعنف، ويدعو إلى تطهير اللغة منها، منتقداً التفسير الساذج ذا الفهم الواحد، والقراءة السلفية للنصوص الدينية، فضلاً عن الدعوات لتعزيز الهوية بفعل حججها للآخر، وقد استند إلى الكثير من الآيات القرآنية التي تهدف إلى إشاعة السلام والتسامح، ونبذ العنف.

وفي الفصل الذي حمل عنوان الكتاب ذاته «إنقاذ النزعة الانسانية للدين»، يحمل الرفاعي على القراءة الحرفية القمعية للنصوص الدينية، من دون أي مراعاة للمقاصد الحقيقية وراء الدين نفسه، والتي أدت إلى طغيان صفة العنف والتشدد، بسبب الهروب إلى الماضي، والاقْتصار على إسلام جيل الصحابة، ومحاربة كل أشكال الحياة الأخرى كالفنون الجميلة والموسيقى وغيرها. وتطرق إلى مجموعة من المفكرين الذين برهنوا على تجذّر النزعة الإنسانية في الدين الإسلامي، داعياً إلى إحياء التجارب الإيمانية الشفيفة من خلال استيعاب الحياة الروحية الخصبة في الدين، والتي تمنح أصحابها رؤية مثقلة بالمعنى، مدعماً رأيه بالعديد من المصاديق والشواهد التي تزخر بها النصوص الإسلامية.

وكرّس المؤلف ثلاثة فصول عن التجربة الدينية المعاصرة في إيران، عبر سياحة سوسيو تاريخية فريدة،

فإنه قد تجاوز المسائل الفقهية إلى السعي إلى بناء فلسفة بديلة للدين. ثم تحدث في الفصل الآخر عن «جدل العلاقة بين الاستبداد والعبودية الطوعية»، مبيناً الجوانب السوسولوجية والثقافية التي تقف وراء الطغاة والمستبدين، متعرّضاً لمقولة الكواكبي «المستبدون يتولاهم مستبد، والأحرار يتولاهم حر»، والتي ينطلق منها إلى إيضاح فكرة ترسيخ النظام الاجتماعي لهذا النوع من النظم السياسية القائمة بفعل القيم الأبوية التي تنهجها العائلة. أما الفصل الآخر فقد تعرض المؤلف إلى موضوع في غاية الأهمية وهو «إسلامية المعرفة»، إذ بدأ بتاريخ المعرفة لدى المسلمين منذ بزوغ فجر الدين الحنيف، وحتى ربيع القرن الأخير، عارضاً للقارئ موقفين متناقضين منها، الأول يؤيد الاستمرار بهذا المشروع بغية توطين وتبيئة علوم خاصة بالمجتمعات الإسلامية، والآخر يحذر من ذلك ويعتبره ضرباً من ضروب التبعية الايديولوجية. ثم يطرح عدة أفكار وتساؤلات حول أمام القارئ قبل أن يؤيد أو يعارض الفكرة. وفي الفصل الذي يليه، عقد المؤلف مقارنة بين اثنين من أهم منظري الحركة الإسلامية العقلانية في إيران ومصر، وهما علي شريعتي، وحسن حنفي، حيث يتطرق إلى البيئة التاريخية التي نشأ فيها الأول، إضافة إلى العلاقة التاريخية التي تربطه بالثاني، وتأثره به، مسجلاً بعض الانتقادات على منهجيهما في تثوير المجتمعات الإسلامية. ولخبرته الكبيرة في المجالين الفقهي والكلامي، يكرّس الرفاعي الفصل الآخر، للمرجعيات الكلامية للفقهاء، متطرقاً إلى تغلغل المسائل العقائدية

ذكر بالتفصيل التطور الزمني لهذه الدعوة.

الثانية: التفكير بالدولة داخل المدونة الفقهية في مدرسة النجف، والتي بدأت منتصف القرن العشرين، على يد الشيخ محمد مهدي شمس الدين، والشهيد محمد باقر الصدر، في حقبة بدأ التأثير فيها واضحاً بشعارات الإخوان المسلمين، وحزب التحرير، وكتابات سيد قطب.

الثالثة: التفكير بالدولة من جديد خارج المدونة الفقهية في مدرسة النجف، على يد كتاب مثل الراحل محمد جواد مغنية، مختتماً حديثه عن النجف بالعصر الحالي الذي يشهد رجوع المدينة إلى ألقها، فهي لم تنقطع عن حج السياسيين إضافة إلى عرضه آراء للسيد السيستاني تتبنى العدالة والمساواة وضرورة الحفاظ على الحقوق والواجبات، واعتماد الانتخابات كآلية لتداول السلطة، وهي دليل على تطور تفكير النجف بالدولة.

قراءة منتظر ناصر

تضيء للقارئ العربي الطريق لمعرفة رموز وشخصيات الحركة الفكرية الدينية الإصلاحية، مروراً بجدلية الثورة التي تجاوز عمرها ٣ عقود.

إذ يقسم أزمنة التحديث في إيران بحسب رأيه إلى ٥ أزمنة، ابتداء من بداية القرن التاسع عشر، وحتى صعود أيديولوجيا الثورة أواسط القرن العشرين، مروراً بمناهضة الاستبداد، والمشروطة والدستورية، والمحاكاة الشكلية للغرب.

أما النجف، وهي المكان الأول الذي تفتحت فيه رؤاه المعرفية، فيفرد لها الرفاعي فصلين، يتطرق فيهما إلى تاريخ المدينة المعرفي والديني، وتأثيرها في الوضع السياسي سواء في العراق أو إيران، بدءاً من رصيدها الرمزي بسبب مدفن الإمام علي فيها، إلى تحوّلها إلى حاضنة لدراسة الفقه الشيعي عبر تاريخ طويل من ظهور رموز وأسماء شكّلت مرجعيتها الدينية، قبل ضمور دورها التاريخي بفعل الأحداث السياسية المختلفة.

إذ تطرّق أيضاً إلى دورها السياسي في بلورة عدد من المواقف من قبيل انتفاضة التبغ التي حدثت عقب فتوى المرجع الشيرازي، إلى ثورة المرشد الأعلى الخميني إبان توأجه في المدينة، مروراً بحركة المشروطة، وصياغة الرؤى النظرية والدستورية التي قام عليها النظام الإسلامي الإيراني الحالي، بعد صياغتها على يد المرجع الشهيد محمد باقر الصدر. ثم تطرّق لاحقاً إلى تطور فكرة الدولة في النجف، عبر ثلاث مراحل:

الأولى: انبثاق الدعوة للدستور عقب حقبة الاستبداد السياسي الذي أجل ظهور الفقه السياسي الشيعي، حيث